



عبد الله النديم

لسان الإصلاح والحرية

حيثما يثور الإنسان على الواقع المألوف.. فهو يهدف إلى تغييره وإصلاحه.. ولا يستطيع أن يقوم بذلك دون أن يتسلح بالشجاعة والمغامرة والحب والإخلاص..

ونحن اليوم مع شخصية أفنت عمرها من أجل الدعوة إلى الإصلاح.. فكان جزاؤها الاضطهاد والتربص.. والتهديد.. مما دعاها إلى أن تلجأ إلى نفي الذات بعيداً عن هذا الواقع المريض..

إنه الثائر المصلح عبد الله النديم..

ولن يكون حديثنا عنه شاملاً.. وإنما سوف نقف على شاعريته وكيف كان شعره غصّة في حلق الاحتلال والحكام الفاسدين.

ولد عبد الله بن مصباح بن إبراهيم الإدريسي في عام 1845 بالإسكندرية ودرس في المسجد الأنور.. لكنه اتجه إلى الأدب واشتهر بالإسكندرية بالأديب الناشئ.. وصار يدعى إلى المجالس الخاصة (ينادم) السادة.. ويترسل ويقول الشعر.. فأطلق عليه (النديم).. وصار محترفاً في المنادمة.. محترفاً في الخطابة والشعر.

وانتقل النديم إلى القاهرة ليعمل في مكتب تلغراف القصر العالي.. وتعرف على جمال الدين الأفغاني الذي كان أبا روحياً للشوار المصريين.

وأصدر النديم مجلة التنكيت والتبكيث - ثم مجلة للطائف - ثم مجلة الأستاذ.. ليدخل النديم عالمي الأدب والسياسة من أوسع أبوابها.

ويشارك في الثورة العراقية بشعره وخطبه ومقالاته حتى إن كثيرين لقبوه بلسان الثورة.

ويذكر أنه لما سافر الألاى السودانى الذى كان يقوده الأميرالاي عبد العال حلمي أحد زعماء الثورة من القاهرة إلى دمياط في أكتوبر 1881.. كان يوماً مشهوداً احتشدت فيه الجماهير في محطة القاهرة لتحية الألاى وكان بين المودعين أحمد عرابي.. والبارودي.. وعبد الله النديم الذى وقف يخطب في حماسة وطنية ثم قال:

إليكم يرد الأمر وهو عظيم

فإني بكم طول الزمان رحيم

إذا لم تكونوا للخطوب وللردى

فمن أين يأتى للديار نعيم

وإن الفتى إن لم ينازل زمانه

تأخر عنه صاحبٌ وحميم

فردوا عنان الخيل نحو مخيم

تقلّبه بين البيوت نسيم

وشدوا له الأطراف من كل جهة

فمشدود أطراف الجهات قديم

إذا لم تكن سيفاً فكن أرض وطاة

فليس لمغلول اليدين حريم



و حين وقعت هزيمة الثورة العراقية ظل مخلصاً لها..

وكان النديم من هؤلاء الذين أمرت الحكومة باعتقالهم.. لكنها عجزت عن القبض عليه.. فقد ظل محتفياً عن أعين الحكومة وجواسيسها نحو تسعة أعوام.. ورصدت الدولة ألف جنيه لمن يرشد عنه.. لكنها لم تهتد إليه.

وفي سنوات الاختفاء هذه حدثت له أحداث جسام بعضها أقرب إلى الخوارق والأساطير.. وقد كتب النديم خلال هذه السنوات أشعاراً كثيرة بقي منها القليل.

ثم قبض عليه ونفى إلى (يافا) في أكتوبر 1891.. ثم صدر حكم العفو عنه في 3 فبراير 1892 فعاد إلى مصر والاستعمار يتحكم في كل مرافق الحياة لكن روحه الثورية لم تخمد.. بل ظلت مشتعلة في كتاباته.

ولم يكف النديم عن نظم القصائد التي تحذر الشعب من الاستعمار وأعدائه.. ومن ذلك قوله:

ينادونكم للغير باسم صلاحكم

وسمّ الأفاعى في صناعتهم حرباً

أزِيلُوا بنى ودىّ تنافركم ولا

تميلوا لما ضر الصدور به الغمرُ

تنافركم بالدين ينثر جمعكم

ويجعلكم نوقاً يشردها النيرُ

مذاهبكم شتى وكلّ بدينه

قريير عيون لا يحوله النعرُ

أو يقول في وصف ليلة هروبه واختفائه:

أ أنسى يوم مصر والبلايا تطاردني ولا ألقى معينا
أحاطوا بي وسدّوا كل باب وصرنا بين أيدي الباحثينا
وكان السطح مملوءاً بجندٍ وخلف البيت كم وضعوا كميناً
وأعمى الله عنا كل عين وكنا للعساكر ناظرينا
وألقى الله ستر الحفظ فضلاً فلم ترنا عيون الملبسينا
ونجى الله بعد اليأس عبداً يرى الرحمن خير المنقذينا

وهو هنا يتمثل ما حدث للرسول (ص) في ليلة الهجرة.

ثم نفى النديم مرة أخرى إلى استانبول حيث لحق بالسيد جمال الدين الأفغاني عام 1893 وظل هناك إلى أن رحل عن الدنيا في 11 أكتوبر عام 1896 بعيداً عن وطنه الذي ظل يدافع عنه طوال حياته.

ومن أشعاره التي كانت تدعو إلى الجهاد قوله:

بنو العرب هيا لا يعيش جبانُ

فجسمى وروحي همّةٌ وجنانُ

أديروا بني مصر رحاى على العدا

فليس لأهل البغي بعد أمانُ



وردوا عدوا يبتغى بقتالكم
دياراً ثراها عسجدٌ وجمانُ
أروه الليالي السود بالضرب في الضحى
ليعرفه بعد الحروب هوانُ
أروه وقوف الأُسُد تحمى ديارها
يحدثه عما تبين عيانُ
فكونوا رجالاً أهلکوا شر أمة
سياستها دون الأنام دِهَانُ
وردوا لهذا القطر أول مجده
ففى يدكم من ساكنيه عنانُ

وكتب النديم مسرحية (الوطن) فى أثناء عمله بالمدرسة الخيرية
بالإسكندرية.. وشهد عرضها الخديوى توفيق وكان فى بداية حكمه فى
جانب الحرية والإصلاح.

وفى هذه المسرحية يقول:

قل للنفوس التى ماتت بلا أجلٍ
أين القلوبُ التى كانت تجارينا
أين الشيوخ الألى ساروا وسيرتهم
مسك ندى يبارى مسك دارينا



أين العلوم التى كانت توصلنا

باب السعود فصارت من أعادينا

كانت وكانوا وصار الكل فى عدمٍ

واستبعدتنا بما نهوى أمانينا

نمشى حفاة على شوك القتاد فلا

يؤذى النفوس وكان الخز يؤذينا

استودع الله قوماً كان طبعهم

يُيدي لك الحاليتين : اليأس واللينا

ويبدو أن الشدائد قد صقلت روح النديم.. فلم يستسلم لمحتته.. ولم

يدع اليأس يتسرب إلى نفسه فى أى لحظة من لحظات الاضطهاد والنفى..

ويكفى أنه حين نفى مرة أخرى إلى استانبول بعد تدخل اللورد

كرومر.. ودع قراءه فى صحيفته (الأستاذ) التى تعطلت أيضا بنفيه.. قائلاً:

أودعكم والله يعلم أننى أحب لقاكم والخلود إليكم

وما عن قلى كان الرحيل وإنما دواع تبدت والسلام عليكم

ويودع الأصدقاء النديم فى مثواه الأخير باستانبول ولسان حاله يقول:

بالأمس كان غريباً فى دياركم

واليوم صار غريب اللحد والكفن